

صوت الموسيقى.. فيلم أعاد للسينما نهاياتها السعيدة

حكاية تبث الدفء في عالم تكنولوجي أصبح باردا



تكريم جديد بعنوان «إنجاز العمر» يؤكد أن العمل مازال في الذاكرة

الدخل، ليس فقط في ذلك العام، بل على مدى تاريخ صناعة السينما حينها، متجاوزا دخل فيلم "ذهب مع الريح".

استطاع "صوت الموسيقى" أن يحافظ على هذا الترتيب طيلة خمس سنوات، ليحلل شهرة واسعة، ليس فقط في الولايات المتحدة، بل عبر العالم، محطاً أرقام شبكات التذاكر المسجلة في 29 بلداً.

وحصد الفيلم على خمس جوائز أكاديمية، بما في ذلك أفضل فيلم وأفضل مخرج. حصل الفيلم أيضاً على جائزة غولدن غلوب، لأفضل فيلم سينمائي وأفضل ممثلة، وجائزة المخرجين نقابة أميركا عن الإنجاز المتميز، وجائزة نقابة الكتاب الأميركية لأفضل فيلم موسيقي أميركي مكتوب.

وفي عام 1998 صنّف معهد السينما الأميركية (AFI) فيلم "صوت الموسيقى" في المركز 55 ضمن أفضل الأفلام الأميركية. ونال المركز الرابع كأفضل فيلم الكونغرس في الولايات المتحدة من بين الأفلام التي سيتم حفظها في السجل الوطني للأفلام، واصفة إياه بالفيلم المهم "ثقافياً وتاريخياً وجمالياً".

لقد أثبت وايز أن الحكمة لم تخنه عندما اختار القصة ليعيد إعدادها وتقديمها كفيلم سينمائي. وقد قدمت كعرض مسرحي موسيقي عام 1959، حمل الاسم نفسه، ووضع الألحان، ريتشارد رودجرز، من كلمات، أوسكار هامرستين الثاني. وكتب سيناريو الفيلم إيرنست ليمان، مقتبساً عن كتاب المسرح الموسيقي ليندساي وكراوس. بناء على مذكرات قصة مغني عائلة تراب ماري فون تراب.

بعد عشرين عاماً أو أكثر من هذا التاريخ، يرسل جميع من عمل في الفيلم، وجميع من شاهد عرضه الأولي، ولكن الفيلم يبقى وثيقة وشهادة تقول لأجيال الذكاء الاصطناعي: هكذا عاش الناس قبل مئة عام.

بالنسبة لتلك الأجيال، ستكون حياتنا وتفصيلها مشروع حكاية هي الأخرى، ولكن حكاية أكثر درامية من صوت الموسيقى، حكاية جيل مخضرم، من تلقى النقاد المتردد للفيلم وأرائهم المختلطة، إلا أن الفيلم حقق نجاحاً تجارياً كبيراً، باعتباره عائلة تراب. يتذكر الطرق المرصوفة بالخرق، جيل عاش جيل حياته يركب السيارات والطائرات، درس على ضوء الشموع وضوء المصابيح. ثم قبل أن يافل نجمه ويرحل شهد أطرافاً مما يخبره زمن الإنترنت والذكاء الاصطناعي للقادمين الجدد.

ليس من حقنا أن نقول إننا، نحن جيل عصر صوت الموسيقى وذهب مع الريح، محظوظون. سنرحل ونحن على يقين تام بأن عصرنا لن يخفى من ذاكرة البشرية، وأن فيلمنا أثار من البهجة ما أثاره فيلم "صوت الموسيقى"، لن يخفى هو الآخر من الذاكرة.

أمن متعاطف معهم، تهرب العائلة، تشق طريقها مشياً على الأقدام عبر جبال الألب باتجاه سويسرا.

انتهت الحدوتة، فماذا عن الفيلم؟ الفيلم دراما موسيقية إنتاج عام 1965، للمخرج والمنتج الأمريكي، روبرت وايز، يشارك جولي أندروز البطولة فيه، كريستوفر بلامر. مزج الفيلم، باقتدار، بين الواقع والخيال، وقدم لغة سينمائية تذكّر في كل كلمة بحكايا الجدات، قصة الأمير ومحبوبته الفقيرة. فهل أساء الواقع للخيال، أم دعمه؟

مؤكد أنه أضاف مسحة من السحر والكثير من الجاذبية، وإن تعارض تماماً مع تيار السينما الواقعية، الذي ظهر في إيطاليا مع نهاية الحرب العالمية الثانية. من إيطاليا انتشرت تيار الواقعية في أوروبا والعالم، وشق لنفسه طريقاً خاصاً يعكس الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة بعد الحرب العالمية الثانية. كان أشبه بوثيقة تاريخية تشكل جزءاً كبيراً من الذاكرة الأوروبية. خرجت معه عدسات الكاميرا إلى الشارع، وإلى المغرورين، حولتهم إلى أبطال مختلفين عن صورة البطل النمطية، أبطال ينتمون إلى الطبقات الدنيا.

يعتبر روبرتو روسيليني رائد تيار الواقعية في السينما، شكل فيلمه "روما مدينة مفتوحة" منعرجاً في تاريخ السينما الإيطالية بل والعالمية، لتقضي السينما الواقعية الجديدة على جوهر السينما السائد حينها "فكرة انتصار الخير على الشر".

في مثل تلك الأجواء ظهر "صوت الموسيقى"، ليحيي فكرة "الخير والشر" من جديد. حينها تساءل النقاد: هل فقد وايز الحكمة ليغامر

بإنتاج فيلم مثل هذا؟

تم عرض الفيلم في 2 مارس 1965 في الولايات المتحدة، في البداية ضمن عرض محدود. وعلى الرغم من تلقي النقاد المتردد للفيلم وأرائهم المختلطة، إلا أن الفيلم حقق نجاحاً تجارياً كبيراً، ليحتل الترتيب الأول في شبكات التذاكر، بعد أربعة أسابيع من العرض، ويصبح الفيلم الأكثر ربحاً في عام 1965. وبحلول نوفمبر 1966، احتل الفيلم المرتبة الأولى في

والجبال المحيطة بها، بعد أن استبدلت ملابسهم ذات الطابع العسكري الذي يفرضها عليهم والدهم، بملابس مشرقة صممتها ونفذتها بنفسها. معها اكتشفوا طفولتهم وتعلموا كيف يعيشونها، وتعلموا حب الموسيقى والغناء.

يعود جورج من سفرته، وبرفقته بارونة حسناء من أسرة ثرية تدعى، السا شريدر، وصديق مشترك يعمل وكيل أعمال موسيقيين، يدعى ماكس ديوتيلير. وتصادف لحظة دخول المنزل برفقة صيفيه، دخول ماري مرفوقة بالأطفال، عاندين من مغامرة نهريّة، انقلب خلالها القارب الذي يستقلونه، يا للفضيحة، هيئة أطفاله بنياهم المبللة تخرج الرجل العسكري الصارم، ليندفع مؤنباً ماري، مستغنياً عن خدماتها، طالباً منها الخروج من المنزل.

في هذه اللحظة، وعلى طريقة حكايا السنديريلا، تسمع أصوات غناء تنسرب من غرفة في المنزل، صوت أطفاله يغنون للبارونة، يتبع جورج، مبهوتاً، مصدر الصوت، ويدخل متردداً. لتحدث النقلة المفاجئة، بعد سنين من الصرامة، يصحو الطفل داخل الرجل العسكري، يشترك أطفاله غناهم، طالباً من ماري الصبح والبقاء في المنزل، معتزراً عن خشونته.

كما هي كل الحكايا التي تنسج على طراز سنديريلا، يحدث انجذاب عاطفي بين جورج وماريا، رغم خطوبة جورج المعلقة إلى البارونة السا، التي تعمل جاهدة لإقناع ماري بالانسحاب والعودة إلى المنزل.

مهزومة وكاتمة مشاعر الحب، تغادر "سنديريلا"، إلا أن ذلك لم يبذل من مشاعر "الأمير"، الذي يقسح خطوبته من البارونة ويعيد محبوبته إلى المنزل ليتزوج منها.

وفي اللحظة التي نظن فيها أن القصة انتهت، تبدأ من جديد. يتدخل القدر، وتندلع أحداث الحرب العالمية الثانية، بينما الأمير والسندريلا في شهر عسل. لتتوالى الأحداث، ويرفض جورج التعاون مع النازيين، الذين يطاردونه. يهرب برفقة ماري والأطفال ويجاؤون إلى الدير للاختباء، وخلفهم كلاب النازيين. بمساعدة من الراهبات، ومن رجل

فيلم أثار الكثير من الجدل والخلاف بين النقاد، فقد وصفه بعضهم بالفيلم التجاري. فالنتج، حسب رأيهم، ينافق الجمهور ويستجدي عواطفه ومشاعره. وقالوا إن مخرج الفيلم فقد الحكمة والنباهة عندما قرر تقديمه للسينما، في عصر سادت فيه الواقعية الإيطالية. ولكن فيلم "صوت الموسيقى" حقق نجاحاً كبيراً، وأثبت أن المخرج عرف ماذا يريد، بإعادته للسينما فكرة النهاية السعيدة وانتصار الخير على الشر. من منا يتذكر اليوم أفلام رائد الواقعية الإيطالية، روبرتو روسيليني، حفنة من المثقفين المتابعين لتاريخ السينما وتطورها، بينما على العكس من ذلك، لا يزال، فيلم "صوت الموسيقى"، مسموعاً في أذاننا ومحفوظاً في ذاكرتنا، مثله في ذلك مثل حكايات سنديريلا وسنوايات وألف ليلة وليلة. اليوم، وبعد خمسة عقود ونصف، يجمع النقاد على تكريم بطلة الفيلم، جولي أندروز، وهي في عامها الثالث والثمانين، لتقول إنها كانت محظوظة عندما اختارها المنتج لتؤدي دور البطولة في الفيلم.

ولدت جولي أندروز، التي تجاوزت الثالثة والثمانين من عمرها، في مقاطعة ويلز البريطانية، في الأول من أكتوبر 1935، عملت في المسرح الغنائي الاستعراضية في بروكواي بنيويورك، منذ أن كانت في التاسعة عشرة من عمرها، محققة نجاحاً كبيراً لفت أنظار النقاد.

لم تكن طفولتها سعيدة، بسبب طلاق والديها ثم زواج أمها من مغن كان يؤدي في الصالات، يدعى إيوارد أندروز، وهو الذي أخذت اسمها عنه، رغم أنها لم تكن تحبه، بل كتبت في مذكراتها أنه كان مدمناً للخمر، انتقل الإدمان منه إلى أمها، مما أصابها بالإحباط واليأس.

بدأت جولي الغناء عندما كانت في الثامنة، خلال الحرب العالمية الثانية. كانت تغني داخل الملاهي، حيث يحتمي السكان من الغارات الألمانية. ولفت صوتها القوي انتباه أمها، التي عرضتها على طبيب لقياس قوة أحبالها الصوتية، ليجد أنها تتفوق على الكثير من البالغين. عندما بلغت الثانية عشرة غنت في نفس الأماكن التي كانت أمها تعرف فيها، إلى أن أسند إليها دور في مسرحية غنائية على مسرح "هيودروم" في لندن، ثم قامت بالدور الرئيسي في مسرحية "سنديريلا" معتمدة الأداء الحركي الصامت.

لفت أداؤها نظر مخرجة مسرحية "العشيق" التي انتقلت بالمسرحية إلى نيويورك، وأسندت بطولتها إلى جولي، لتبدأ رحلة صعود وتائق، استمرت أكثر من ستين عاماً. فازت خلالها بجائزة أوسكار وجائزة الغولدن غلوب، عن أداؤها الاستثنائي في فيلم "ماري بوبينز" عام 1965، ورشحت لجائزة أفضل ممثلة في العام التالي عن دور الرئيسية ماري فون تراب في صوت الموسيقى "ساوند أوف ميوزيك".

رحلتها مع الإبداع لم تنقطع رغم تقدمها في العمر، فبعد حصولها لقب "الدي" (سيدة)، الذي أسبغته عليها ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية، عادت إلى الشاشة من خلال فيلم "مذكرات أميرة" عام 2001. وأعارت صوتها للعديد من الأفلام.

دعونا الآن من جولي أندروز، لننتحدث عن "صوت الموسيقى"، عن فيلم أثبت أنه لا يموت.

لنبدأ بالقصة: ماري فتاة شابة تنبض حيوية وحباً للموسيقى والطبيعة، جنوحها للخيال لا يعادله سوى رفضها الخضوع للقواعد والضوابط والنواهي. شخصية كل ما فيها يتغير مخاوف راهبات دير نونبيرغ الذي قطعه في مقاطعة سالسبورغ النمساوية في أحضان جبال الألب. العام هو 1938، على بعد عام واحد من الحرب العالمية الثانية، التي ستشكل أحداثها خلفية للقصة.

اجتمعت الراهبات على أن روحاً متمردة، مثل روح ماري، يستحيل أن تعيش خلف جدران دير كالح منقشف، وأن مكانها هو أحضان الطبيعة بعيداً عنهم. اتخذ القرار بالإجماع، لترسل ماري إلى منزل جورج فون تراب، وهو ضابط بحري متقاعد، لتكون مربية لأطفاله السبعة.

حياة التقاعد، لم تنسج جورج الانضباط العسكري الصارم، الذي يطبقة على أطفاله بعد وفاة زوجته. ومثل كل القصص التي تنسج على هذا المنوال، أساء الأطفال التصرف في البداية مع ماري، رافضين الانصياع لتوجيهاتها أو أن تكون لها سلطة عليهم، إلا أن ماري تواجه صدهم باللطف والصبر والحنان، وسرعان ما تكسب ثقتهم واحترامهم، لتصبح مخزن أسرارهم الطفولية.

تواجد جورج في فيينا يقدم ماري فرصة سانحة، تخرج بالأطفال خارج أسوار المنزل، تتجول بهم في سالسبورغ

علي قاسم
كاتب سوري مقيم في تونس

ما مشعورك وانت تتوج بعد 55 عاماً من العطاء؛ حالة من الرضا، وفرح منسوب بالحزن، كيف مرت السنين على سيدة الأفلام الغنائية جولي أندروز. هل يمكن لمن شاهد فيلم "صوت الموسيقى" في الستينات أن ينسى فتاة ملصق الفيلم الإعلاني، ليس لجمالها، وإن كانت حقاً جميلة، إلا أن الحيوية هي سر جاذبيتها.

شاهدت الفيلم في نفس العام الذي أنتج فيه، كنت طفلاً محظوظاً في الثانية عشرة، لم أفقد بعد القدرة على الدهشة وعلى الانبهار، وفعلنا أبهرني وأدهشني من لحظة الافتتاح التي كشفت عن مشاهد طبيعية لجبال الألب الساحرة التي تخلب الأبواب، إلى لحظة ظهور بطلة الفيلم الغنائية. رشيقه هياكل، هكذا كانت. ظهورها لم يعكر صفاء المشهد الطبيعي، بدت وكأنها جزء منه، حتى صوتها وهي تغني بدا هو الآخر عنصراً من عناصر الطبيعة.



تساءل بعد 53 عاماً لو أنني شاهدت الفيلم اليوم، هل كان ليسبحني كما سحرتني بالطفولة؛ بالتأكيد كنت محظوظاً، مثل بطلة الفيلم جولي التي أكدت وسط تصفيق جمهور احتشد لحظة تكريمها ومنحها جائزة الأسد الذهبي لإنجاز العمر في الدورة 76 لمهرجان فينيسيا السينمائي الدولي. قبّلت الجائزة وقالت إنها تعدّ نفسها "محظوظة" لهذا المشوار الطويل الذي قضته في حياتها المهنية في فن السينما.

وما زالت تتعجب من حقيقة أنها كانت الفتاة المحظوظة التي طلب منها أداء هذه الأدوار الرائعة. وطوال تلك العقود ظلت جولي أندروز، بملامح وجهها وصوتها المميز، نجمة مفضلة حاضرة في أذهان أجيال متعاقبة، أحبها الصغار والكبار، بل إن البعض أحبها في طفولته، أيام تالقها في ستينات القرن الماضي، وراقفها نجمة كبيرة في أوراها التمثيلية المختلفة في العقود اللاحقة.

أفلام رائعة لا تموت، وأدوار رائعة تنتمي للزمن الجميل، هي شهادة على عصر الرومانسية قبل أن تجهز عليه التكنولوجيا ووسائل الاتصالات الذكية. كنت محظوظاً، لأنني مثل الشعراء المخضرمين كنت شاهداً على عصريين.